الإسلام السياسي في المغرب من الحظر إلى الاحتضان

د. محمد آيت لعميم*

طرح الإسلام السياسي، بصفة عامة، للنقاش منذ زمن بعيد، فكانت الدراسات التي تعرضت لهذا الموضوع، تتراوح من حيث منهج المقاربة ومن حيث الأهداف ولم يحتد النقاش حول هذه الظاهرة إلا بعد أن وصلت أحزاب سياسية إسلامية إلى سدة الحكم (إيران، تركيا، المغرب، مصر، السودان) وأيضا حين ظهرت مجموعة من الحركات الإسلامية المتطرفة. لكن السؤال الذي يظل مطروحا أو الإشكالية المعقدة التي ستبقى مستمرة هي ما طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة، وما مدى التوافق بينهما والتنافر؟

تمتد أصول هذه العلاقة إلى الزمن الأول، أي زمن ما اصطلح عليه بالفتنة الكبرى، وقضية التحكيم في الصراع الذي دارت رحاه بين جيش الإمام علي وجيش معاوية. لقد أسفرت هذه المرحلة الإنعطافية في تاريخ المسلمين عن انزلاق الإسلام في التاريخ. ومن ثم بدأت الفرقة التي لم يلتئم شعبها إلى اليوم. فجل النقاشات التي دارت بين الفرق الكلامية كانت تسبح في قضايا سياسية. فمرتكب الكبيرة -مثلا- كان يتحدد الحكم عليه من منظور سياسي أكثر منه من منظور ديني. وبذلك ظهر التكفير والتفسيق والتبديع والإرجاء والمنزلة بين المنزلتين. وما يؤكد كلامنا هو أن بعضا من هذه الفرق الكلامية، قد وصل إلى الحكم، مثل المعتزلة زمن المامون، والشيعة زمن الفاطميين في مصر. إن أصول هذا الصراع السياسي ظلت تتمدد داخل أمة الإسلام حتى انهارت آخر قلاع الخلافة الإسلامية المتمثلة في دولة بني عثمان. لتضعف دولة الإسلام ويأتي الغرب بجيوشه وتقنياته ومؤسساته فيجهز على ما تبقى من رسوم هذه الدولة. إن حضور الغرب في أرض الإسلام سيدخل المسلمين في زمن آخر إلى غير رجعة وفي تصورات لا قبل لهم بها. لقد كان هذا الحضور

* كاتب وباحث من المغرب

مزعجا ومربكا ومقلقا، فإن شئنا دعوناه بالفتنة الكبرى الثانية فتاريخ الإسلام إذن كان ضحية لفتنتين عرضتا المسلمين إلى انعطافات تاريخية كبرى.

إن ظهور الإسلام السياسي الذي ارتبط بالمرجعيات السلفية الدينية، أسهمت فيه مجموعة من الأسباب منها ما له صلة بسؤال التخلف، ومنها ما له صلة بفشل الأنظمة السياسية العربية التي تبنت القومية أو النظام الاشتراكي أو الليبرالي. بحيث أسفرت هذه التجارب عن ظهور أنظمة ديكتاتورية واستبدادية وعن تبعية مطلقة للغرب، مما قاد مجموعة من الأنظمة إلى الانهيار. فأمام هذا الفشل وهذا الفراغ سيظهر الإسلام السياسي مقدما نفسه حلا بديلا لما آلت إليه الأنظمة العربية الإسلامية.

فالمصطلح الذي أطلق على هذا التوجه هو مصطلح إسلامي **Islamiste**، بدل مسلم **musulman**، فمسلم احتفظ بها للإسلام العادي الذي يمارسه جمهور الأمة من دون استحضار لأي مشروع سياسي. هذا المصطلح سيعرف تحولات مفهومية، فكلمة "إسلامي" أطلقت في القديم على كل من يوجد بأرض الإسلام، وبهذا المعنى نفهم الكلمة كما وردت في كتاب أبي الحسن الأشعري "مقالات الإسلاميين" لكن هذا المصطلح الذي سيطلقه الغرب كتوصيف لهذا التحول **islamisme** سيسمه بمجموعة من النعوت غالبيتها يُشْتَمُّ منها رائحة القدح وعدم الترحيب، علما أن سياسة الدولة الغربية في توجهاتها الكبرى تعاملت مع هذا النوع من الإسلام السياسي كورقة للعب. فتوصيف هذه الحركات الإسلامية السياسية تنوعت مصطلحاته مما يشي بصعوبة التحديد، فالصحافيون الغربيون وظفوا مصطلحات وصور قاسية لتوصيف الظاهرة من قبل "الموجة السوداء للإسلام" أو "سرطان الإسلام" هذه التوصيفات تدين بدل أن تصف وتحلل. أما البعض الآخر فقد أطلق أسماء مستوحاة من السوسيولوجية الدينية الغربية مثل "التطرف" أو "الأصولية" أو "التقليدانية"، فالتقليدانيون يسعون إلى الحفاظ عما عرفوه سلفا مع تغييب أي مشروع سياسي خاص، أما الأصوليون فيريدون قبل كل شيء العودة إلى الأصول الأولى مع قبولهم للنضال، وهم بخلاف الإسلاميين يرفضون الحداثة التكنولوجية وداخل الإسلاميين هناك إسلاميون متطرفون، وإسلاميون معتدلون.

يذهب فرانسوا **Burgat**، إلى أنه ينبغي أن نميز بين مصطلح مسلم الذي هو مصطلح يعين الانتماء إلى الديانة في تنوعها، و"إسلامي" الذي هو مصطلح حديث يحدد شكلا من النزعة النضالية المرتبطة بالمشروع السياسي ١ .

فهناك المسلمون وهناك الإسلاميون، فالإسلاميون يرغبون في إعادة ترميم الدولة الإسلامية الأولى والأصلية، من خلال مشروع موجه في الظاهر ضد القيم الغربية لكن مع القبول بالتقنية الغربية

من دون حرج من أجل منافسة الغرب بسلاحه في موطنه.

يذهب أحمد الشعراني إلى أنه ليس هناك نمط واحد من الإسلاميين، فهناك إسلاميون متعارضون وغير قادرين على تمثل استراتيجية موحدة، مثلا هناك من يريد أسلمة من التحت وآخرون من الفوق، فالأمر يتعلق هنا بمشروعين مختلفين اختلافا جذريا. فعلى سبيل المثال "جماعة التبليغ" ذات الأصول الباكستانية ترغب في أسلمة الحياة اليومية من دون التعرض للدولة أو منازعتها بل هي تقبل بأن تتكلف الدولة بشأنها السياسي تاركة لهم تسيير الحياة اليومية، فهم يؤمنون بتغيير النفوس في هدوء من دون أن يطفو ذلك بشكل مفاجئ في الفضاء العمومي. أما الإسلاميون الذين يرغبون في التغيير من الأعلى فهم يؤمنون بأسلمة المجتمع عن طريق القوة والعنف المفتوح "ويمكنهم أن يندمجوا في استراتيجيات متشددة ومتطرفة لأنهم لا يعتقدون بأن المسلمين العاديين قادرون على إنقاذ أنفسهم" ٢.

لقد قدم لظاهرة الإسلام السياسي مجموعة من التفسيرات من قبل الباحثين والدارسين ومنها التفسير الجوهراني الذي يركز على أن "المسلمون لديهم جوهر لا زمني لم يتطور ولن يتطور"٣ هذا التفسير لهنري دوليسكين لا يميز بين المسلم والإسلامي وهو ذو أصول استشراقية ساذجة لتركيزه على أن الإسلام نسق ثقافي جامد والواقع غير ذلك.

وهناك تفسيرات سياسية تقتضي أنه في مجتمعات من دون حياة ديمقراطية حقيقية تظهر جماعات جديدة في المجتمع كي تثبت وجودها في المشهد السياسي وتختار النضال الإسلامي، وترجع التفسيرات الإقتصادية الأمر إلى أنه لولا أموال النفط لم يكن للإسلاميين أن يظهروا بهذا الشكل، فالدعم المالي كان من وراء هذا الإنتشار أما التفسير السوسيولوجي فيرجع الظاهرة إلى أن الهجرة القروية نحو المدن كانت دافعا أساساً لظهور جماعات حامية للمنخرطين فيها بعد أن فقدت روابط القبيلة، وغالبا ما يكون مسير هذه الجماعات من الشباب المتعلم خريجي المدارس، ناهيك عن التفسيرات النفسية.

يرى الشعراني أن هناك تفسيرا آخر أصيلاً له صلة بالتفسير اللاهوتي، فهو يرى أن مناضلي الإسلاميين ليس لديهم تكوين ديني عميق، فهم يعرفون بعض الآيات القرآنية المختارة بعناية يذكرونها في كل سياق ويخفون آيات تدينهم، فمثلا لا تعنيهم الآية الكريمة "لا إكراه في الدين" (سورة البقرة)، وآيات أخرى تتحدث عن الوسع في الإسلام والرحمة والقبول بالآخر حتى ولو كان خارج الملة، ومن جهة أخرى فالإسلاميون يستعجلون حساب البشر ويحكمون على الناس بالجاهلية والتبديع والتفسيق والتكفير فهم في أعماقهم حلوا محل الإله الذي له الحق في أن يحاسب خلقه. لقد وقعوا

في المحظور من دون أن يحتسبوا، فقد قادتهم مواقفهم المتطرفة إلى نوع من النزعات الإلحادية حيث هيمنة الإنسان على مرادات الله. "فالإسلاميون سيصبحون إذن أولئك الذين يخربون الإسلام حين أغرقوه في النزعة الدنيوية فأنتجوا بذلك ما أسماه أمين معلوف "الهويات القاتلة" ٤

إن رغبة الإسلاميين في العودة إلى الزمن الأول المتخيل هي إرادة دفينة للسماح لكل من لديه الرغبة حتى ولو لم يكن صاحب تكوين عميق بالشأن الديني أن يتعامل مباشرة مع القرآن وأن يستخلص منه المعنى، متجنبا المرور عبر تاريخ التأويلات اللاهوتية في الإسلام وفي عمق هذه الرغبة فمشروع الإسلاميين هو محاولة إقصاء كل تاريخ الإسلام واجتثاث الدين الإسلامي من واقعه التاريخي والإجهاز على المعتقدات الموروثة في المجتمعات الإسلامية.

إن هذا الإطار العام لظهور الإسلاموية والإسلام السياسي يعتبر بمثابة مرجعيات ثابتة لهذا الوافد على الأمة الإسلامية رغم تعدد الجماعات والحركات فالمرجعات واحدة والاختلاف يكون في المنهجيات.

إن الإسلام السياسي في المغرب يستلهم في عمقه تجربة الإخوان المسلمين التي كانت هي أولى الجماعات التي كانت لها أهداف سياسية، فبالرغم من أن زعيمها حسن البنا نشأ في أحضان التصوف إلا أنه سيتوغل في إدخال السياسة في الإسلام ومنذ ذلك الزمان ستنفتح الجماعات الإسلامية على الطموح السياسي والوصول إلى الحكم. ففي المغرب تتوزع الرقعة الإسلاموية بين السلفية الوهابية والعدل والإحسان ذي الأصول الصوفية في بداية النشأة لمؤسسي الجماعة، والعدالة والتنمية ذات المرجعية الإخوانية التي وصلت إلى الحكومة. إلا أن الوضع في المغرب رغم وجود هذا التعدد في الحقل الديني وفي الجماعات الإسلامية فإن تمثيلية الشأن الديني في المغرب تتحكم فيها أمارة المؤمنين المتمثلة في ملك البلاد الذي يجتمع فيه السلطة الدينية والدنيوية، ولذلك فسقف تحركات الجماعة محسوب، فالسلفية الوهابية منشغلة بالتبديع والتفسيق والتصارع مع التصوف ومع العدل والإحسان، وجماعة العدل والإحسان منشغلة بتربية المنتمين إليها والترقب، فهي لا تريد أن تتورط في السياسة الحزبية، تراقب ما يحدث للحزب السياسي الحاكم الذي غامر وتورط ودخل التجربة السياسية بقبعة إسلامية، وما يلاحظ اليوم أنه في المغرب هناك نوع من استقطاب رموز السلفية الجهادية وتذويبها في أحزاب محسوبة على الإدارة من أجل الترويض وضبط التحركات.

ما يلاحظ عموما على تجربة الإسلام السياسي في المغرب أنها تجربة في جوهرها لا تنزع إلى التطرف أو الاستئصال بل هي تجربة مرت من مرحلة الحظر في لحظات من تاريخ المغرب لأسباب تاريخية معروفة، إلى مرحلة الاحتضان بحيث أن الحزب الإسلامي الذي سيصل إلى الحكم جاء في ظروف ما

يسمى بالربيع العربي وأيضا في سياق ضعف الأحزاب القديمة وتشرذم البعض منها، ولم يكن هناك من خيار إلا تجربة الحكم بصيغة إسلامية.

لكن السؤال المطروح ما الذي جناه هذا الحزب الإسلامي من هذه التجربة؟ ألم يغامر بسنوات كان ينعم فيها بالمعارضة وتعاطف الشعب معه؟ إن المحك السياسي وتدبير الشأن العام إخفاقا أو نجاحا هو الذي سيحدد مستقبل الإسلام السياسي في المغرب. وما أميل إليه من خلال ملاحظاتي وتتبعي لهذا الشأن أن وصول حزب إسلامي إلى الحكم في المغرب هو مرحلة من مراحل التناوب على الحكم، تناوب يرتب له بعناية فائقة تقتضيه سياقات المرحلة محليا وإقليميا وعالميا.

الهوامش:

1 - la mouvance islamiste au Maroc, Ahmed Chaarani, p237

2 -Ibid, p 238.

3 - Ibid, p238.

4 - Ibid, p253.